"الوطن في أدب المهجر"

الدكتور سهيل بشروئي

(أوردت جريدة "الأهرام الدولي" القاهرية في عددها الصادر بتاريخ ٢٠٠١/٤/١٠ الخبر التالي عن ندوة "مركز الحوار العربي": "الوطن في أدب المهجر" التي جرت في ٧ آذار/مارس ٢٠٠١، وذلك نقلاً عن مراسلها في واشنطن) وقد جاء في الخبر:

"حين يصبح الحبّ حبّ الوطن، ويُقهر شعب ويجوع ويُعذّب ويُشرّد، ويظلّ يقاوم ويرفض المساومة، ويصرّ على حقّه في الحياة والحريّة، وحين أعطت بريطانيا فلسطين لليهود حدث خطأ في المعادلة الدولية التي أخذت مستقبل شعب يموت حبّاً في أرضه، وأعطته لماضي شعوب غازية من أطراف الدنيا، لأنّ العطاء النابع من غير حب يظل مزعزعاً تنقصه مدارك الحق، لكن جبروت الحب سيظلّ أقوى من أي شيء، فالشعب الذي يموت حباً من أجل الوطن سيظل صوتاً صارخاً في ضمير الإنسانية وسيظلّ رمزاً لما تحمله قصائد الشعراء وآهات المغنين من عميق الحب".

بهذه العبارات قدّمت السيدة ناهدة فضلي الدجاني الشاعرة والإذاعية القديرة الدكتور سهيل بشروئي، أستاذ كرسي دراسات جبران خليل جبران للأدب في جامعة ميريلاند، الذي انشغل طيلة أربعين عاماً بموضوع شعراء المهجر، للحديث عن، وتقويم، أدب حب الوطن في أعمال شعراء المهجر في الأمسية التي استضافها مركز الحوار العربي بالعاصمة الأمريكية.

أشار الدكتور بشروئي في بداية حديثه إلى أنّ موضوع الوطن في الأدب العربي القديم كما نفهمه اليوم يختلف عن فهمنا له في السابق، لأنّ العرب الأُول كانوا ينتقلون من مكانٍ إلى آخر دون تملّكهم الأرض. فعلى الرغم من حرية امتلاك الأرض آنذاك، فإنّ العربي كان دائم العودة إلى دياره، لأنّ علاقة الحب بالديار والوطن هي علاقة عميقة لها أصول وجذور.

وبإطلالةٍ سريعة على حب الوطن في الإنتاج الأدبي عند شعراء المهجر أو أعضاء الرابطة القلمية، التي ضمّت في صفوفها جبران خليل جبران ورشيد أيوب ونسيب عريضة والياس عطا الله وآخرين بالإضافة إلى أمين الريحاني الذي أتاحت له الهجرة أن يلتزم خط الرابطة أدبياً لا عضوياً، نجد أنّ إنتاجها استهدف مختلف أوجه الحياة والطبيعة وناقش معظم مشكلات الإنسان الظاهرة والباطنة، القريبة والبعيدة.

ولدى الشاعر إيمان قاطع بأنّ للشعر وطناً، والوطن بالنسبة للشاعر بمنزلة موطئ قدم ليتمكّن من القفز إلى العلياء، كما يشرح الدكتور سهيل، لأنّ الشاعر العظيم في نهاية الأمر هو ملك للإنسانية سواء أكان أبا العلاء المعري أو شكسبير، فلا يمكن لشعبٍ من شعوب العالم أن يزعم ملكيته لهما، لأنّ أعمال الشاعر العظيم تصل إلى أي جمهور مهما كانت ثقافته أو الحضارة التي ينتمي إليها حتى وإن لم يتحدّث لغته أو يؤمن بمذهب الشاعر نفسه.

والقاسم الجامع في حبّ الوطن بين أدباء وشعراء المهجر هو النزعة الرومانسية الواقعية في أدبٍ هادف تفكيراً وتعبيراً لخلق أدب حر قوي يعنى بالمعاني والأفكار الكبيرة ولا يتقيّد بالسفاسف التي تكبّل أجنحته دون التحليق والسمو، وتمجيد الإنسان وحضارته. فالشعر المهجري في مجموعه، كما يشرح الدكتور بشروئي، يعطينا فكرة عامة عن إنتاجهم الفني ويكشف عن القيم الأدبية، ويبيّن جانباً من محاولاتهم لمعالجة أدقّ المشكلات الروحية والنفسية للإنسان العربي في العصر الحديث بوجهٍ عام. ونلمس في الإنتاج المهجري والشعري والنثري اعتقاداً راسخاً بأنّ فن وأدب الشاعر لا يخضع

لأي مكـــان مهمـــا بعد، سوى القدوة الخلاقة العظيمة الباعثة على الحياة والجمال، تلك القوة المستمدّة من عند الله عزّ وجـــلّ. وأشـــار الدكـــتور بشـــروئي إلى قول الشاعر أبي تمام "ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناة العلا من أين تؤتى المكارم".

وعكســـت الآثار الأدبية للحركة المهجرية إيمانها بالقيم والصفات الإنسانية الخالدة والفنية الجمالية والتقاليد التي تعطـــي الحـــياة معانـــيها وقيمها، وتمجيداً للخيال الفطري الذي لم تلوثه المادية والمدنية الصناعية الحديثة، الذي يتّصل بالأرض الطيبة والفلاحين وأهل القرى من مواطنيهم وثرى الوطن الحبيب، على عكس حضارة اليوم المادية التي تسعى إلـــى هـــدم كـــل أنواع الطقوس والمراسيم ذات المدلولات والمعاني المهمة التي تعكس ترفّعهم عن كل مبتذل ورخيص، وســـخطهم الشـــديد على كل ما تخرجه عقول السوقة للنيل من العقل وطهارته، الذي يجب ألا تدنسه الدعوات المغرضة التي تبثّها أبواق الصحافة والسياسة لأنها دعوات مبتذلة هدفها إهانة الفكر واستعباد العقل الإنساني وتكبيل حرية التفكير والاختيار، على حد تعبير الدكتور بشروئي.

ولعلّ أهم ما يخرج به قارئ شعر المهجريين، إدراكهم العميق لإيمانهم بالحياة وقدسيتها ونبلها، وأيضاً إحساسهم المـــرهف بتنوع تجاربها وتأكيدهم لنا أننا نخلق من حياتنا فناً جميلاً إن كنّا على استعداد لأن نمنحها خيالنا وقلوبنا بكل إخلاص منزهين عن الأغراض الدنيوية التافهة.

وعلـــى الـــرغم من اقتناع جبران ونعيمة والريحاني بضرورة التحدث باللغة الإنجليزية لإيصال فكرهم إلى الغرب، فـــإنهم أدركـــوا فـــي الوقت ذاته أنّ لغة القرآن الكريم هي الجامعة بينهم على الرغم من أنّهم كانوا مسيحيين، وخرجت رسالة النبي لجبران باختصار وبإيمانٍ عميق بالحياة الشاملة وقدرتها على شفاء الإنسانية من أمراضها، واعتقاد راسخ بمبدأ وحدة الوجود ووحدة الأديان ومحبة الرحمن.

يقـــول الدكـــتور بشروئي إنّ جبران اعتبر كل شيء في هذا الوجود جسراً إلى المحبة، وتتبلور رسالة جبران في الإيمـــان والأمـــل والمحـــبة وتعود متألقة رنانة فيقف كتاب "النبي" في كفة الميزان الراجحة، بينما يقف فرويد وماركس وداروين والشعراء الضائعون والبسطاء الحائرون والمتمنعون في الكفة الأخرى، فيقول في "النبي": إن شئتم أن تعرفوا ربّكـــم فلا تعنوا بحلّ الألغاز، بل تأمّلوا ما حولكم تجدوه لاعباً مع أولادكم، وارفعوا أنظاركم في الفضاء الوسيع تبصروه يمشـــي فـــي السحاب ويبسط ذراعيه في البرق وينزل إلى الأرض مع الأمطار .. تأمّلوا جيداً تروا ربّكم يبتسم في ثغور الأزهـــار ثمّ ينهض ويحرّك يديه بالأشجار. ويمتلئ كتاب "النبي" بأصداء مباركة من الكتاب المقدّس والقرآن الكريم. ولم يكـــن عرضـــاً أن يخـــتار جبران ونعيمة الحديث الشريف القائل "ولله كنوز تحت العرش مفاتيحها ألسنة الشعراء" شعاراً للرابطة القلمية في المهجر قبل نحو سبعين عاماً، فقد كانوا مؤمنين بأنّ خلاص العالم وصلاح المجتمع العربي يكمن في اتحادٍ روحي يوحد القلوب قبل الحدود وقبل الجيوب، وأنّه لا يمكن لأحدٍ أن يحبّ العالم إن لم تكن محبة وطنه تملأ قلبه. واختـــتم الدكـــتور بشروئي حديثه قائلاً إنّ شعراء المهجر أدركوا أن حبّ الوطن رسالة سماوية لا يمكن أن تكون حكراً على أحدٍ بعينه."